الجراحة عند الشعوب القديمة

—٢—

الجراحة عند اليونان وفي القرون الوسطى

أهم مستند يصح الاعتماد عليه في درس تاريخ الجراحة عند ما ابتدأت ان تصبح علماً بالمعنى الحقيقي هو بلا شك «المجموعة الابقراطية». واسم ابقراط كما هو معلوم لا يقل قيمةً عن اسم هوميروس وأنهُ ليصعب جداً التمييز بين ما يعزى الى هذا او ذاك من التصانيف العديدة المختلفة. والثابت اليوم لدى المؤرخين الباحثين ان المؤلفات الكتابية التي وصلت الى مكاتب الاسكندرية تحت اسم (مؤلفات ابقراط) بين منتصف القرن الخامس والقرن الرابع ق. م. كانت من كل نوع ومن كل اسلوب وبينها الكتب الفنية الخصوصية. فالتي منها كانت شعراً ترجع الى هوميروس والتي تتعلق منها بالطب سميت «المجموعة الابقراطية» وفي الواقع ان كل ما يتعلق بالجراحة الابقراطية هو شيء مجهول حقيقة اذ لا يوجد سبب ما يحملنا على الجزم في ان التآليف الجراحية هي كلها لابقراط نفسهِ دون غيره من المؤلفين

وعلى كل حال فالجراحة الابقراطية في ادوارها الاولى بين الجيل الخامس والرابع ق. م. رغماً عن وجود كتب للجراحة المنظمة والتصانيف الممتازة البديعة الوصف (كوصف جروح الرأس وكسور العظام او انخلاعها) لم تكن تعرف الاختصاص بأي فرع من الفروع، والجرّاح الابقراطي لم يكن سوى طبيب يمارس العمليات الجراحية فقط عند الضرورة القصوى وفي احرج حالات المرض . . اي ان اعتناء اليونانيين بممارسة الجراحة في ذلك العهد كان قليلاً بل نادراً ؛ مفضلين بالعكس استعمال مواهبهم العقلية لمعرفة الطب في كافة مجموعهِ ولم يتقدموا على اجراء عملية ما إلاّ بعد درس دقيق لحالة المريض والتأكد من النجاح بها حتى لا يعرضوا انفسهم للعار والفشل ويسيئوا الى سمعتهم فيصبحوا والدجالين المشعبذين الذين امتلأت البلاد بهم في مقام واحد

وفي عصر سلسوس (Celsus) اي في أوائل التاريخ المسيحي تطوّرت الجراحة اليونانية تطوراً محسوساً فأصبحت فرعاً جليًّا مستقلاً مال اليه فريق كبير من الاطباء فسعوا لترقيته والاختصاص به . ويرجع الفضل في ذلك الى انشاء المدارس الطبية اليونانية التي ارتقت ارتقاء باهراً اولاً في الاسكندرية بمصر ثم في آسيا الصغرى حتى ان نقلب سراة الاطباء والجراحين اليونانيين الذين أتوا وماوسوا مهنهم في رومية في أوائل التاريخ المسيحي حتى سقوط المملكة الرومانية كانوا كلهم تقريباً من آسيا الصغرى . فهم الذين جلبوا الى رومية العلوم التشريحية والطبية والجراحية وعملوا على ترقيتها ؛ وهم الذين ألفوا الكتب التي تُرجمت الى السريانية في اوائل الحكم البوناني ومنها الى العربية والعبرانية واللاتينية في ابتداء القرون الوسطى . وبهذه الطريقة وصل كثير من مؤلفاتهم الطبية الى ايدي الاطباء الغربيين في ذلك العهد . ويجب ألا ننسى في هذه العجالة فضل جالينوس (١٣١—٢٠١) على الجراحة وعلم التشريح والباثولوجيا ؛ ثم تجاربهُ الفسيولوجية المهمة التي يضيق المجال هنا عن سردها

حالة الجراحة في العصر البيزنطي والعربي والقرون الوسطى
حتى اوائل القرن التاسع عشر

لم يعتر الجراحة تبديل ما في العصر البيزنطي عما كانت قد وصلت اليه وقتئذ ولم يترك لنا ذلك العصر أثراً جديداً سوى محافظة البيزنطيين على مؤلفات اليونان الاولين ومنعها تماماً من التلف والاندثار . ففي خلال العشرة قرون من حكم (٣٩٥—١٤٥٣) الامبراطورية البيزنطية كانت الامبراطورية اشبه بمكتبة حفظت فيها اعظم مآثر الفكر القديم حتى الوقت الذي اصبحت فيه اوربا الغربية جديرة بفهمها او استعمالها (١)

كذلك المستشفيات العمومية العديدة التي يرجع الفضل الأكبر في تأسيسها الى القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين مدفوعة معاً بالعاطفة الدينية والعراية السياسية — هذا عدا المستشفيات الأخرى المخصوصية للمقعدين والملاجيء الخيرية للاطفال والمسنين

اما العرب خلافاً لما قاله عنهم بعض المؤرخين من انهم لم يكن لهم شأن يذكر في تقدم الجراحة وعلم التشريح ؛ فنقول ان علماءهم لم ينالوا قسطاً وافراً من الفوز بهذين العلمين

---

(١) وبين آثار اليونان القيمة ومخطوطاتهم الطبية التي حافظ عليها البيزنطيون بنوع خاص رسالة شهيرة مزينة بالرسوم لـ (Apollonius de Kition) التي عاش في القرن الاول قبل المسيح في شرح كتاب ابقراط عن اسباب انخلاع العظام وهي محفوظة في مكتبة لورنت بفلورنسا . ويظهر من الرسوم التي تزين تلك الرسالة انها نقلت من صور قديمة جداً ترجع للقرن الاول قبل المسيح وهي تمثل كافة حالات الخلع وما شاكله مع كيفية صنع الضمائد المختلفة . وقد نقلت هذه الرسوم مراراً كثيرة الى معظم الكتب الجراحية الحديثة نظراً لدقتها وجمال رسمها